فى اللغـــــة العامية[1]

للأستاذ عبد الرزاق حميدة

— ١ —

اللغة العامية هى اللغة التى يتكلمها عامة الناس فى بلد من البلاد أو جهة من الجهات يستعملونها للتعبير عن أغراضهم العامة اليومية ويتفاهمون بها فيما بينهم تفاهما سريعا فى حديثهم وقضاء مآربهم البسيطة الساذجة .

وهى تختلفة اختلافا قليلا أو كثيراً عما يسمى اصطلاحا لغة الكتابة أو اللغة الفصيحة أو اللغة الأدبية . وذلك الاختلاف أمر طبيعى ، فلغة الكتابة أو الفصيحة خاصة بالأدباء والمتعلمين من رجال اللغة ، وهى التى تودع بطون الكتب . وهى الدليل على ثقافة صاحبها ومبلغه من العلم ، لهذا يحرص عليها المتعلمون — فى كتابتهم على الأقل - وقد يتكلفونها تكلفا ، ليتازوا بها من غيرهم ، ولتكون فارقا بينهم وبين الجهال الذين لا يعرفون إلا العامية وسيلة للترجمة عما فى أنفسهم من أشياء وما يحسون به من محسات .

ولما كانت العامية لسان الكثرة الغالبة من أبناء اللغة ، وفيهم العالى الثقافة الواسع الأفق ، وفيهم الجاهل المحدود التفكير ؛ ومنهم الساذج السطحى النظرة ، والمتوسط الذكاء ، والقليل الحاجة إلى الألفاظ لقلة مطالبه ، كانت

---

(١) يلاحظ أنى اقتصرت فى الأمثلة والشواهد اعتمادا على ذكاء القارئ وسعة تجاربه وليس من الصعب على القراء الكرام أن يجدوا هذه الأمثلة المزيدة لما أقول من معلوماتهم الخاصة ، ومما صادفوه فى حياتهم من نماذج وشواهد ؟

ألفاظها أقل عددا . وكانت تراكيبها ، والخيال فى تشبيهاتها واستعاراتها أقرب إلى البساطة . وأدنى إلى الفطرة .

أما الفصيحة فهى لغة الأدب والعلم . ورجال الأدب والعلم قليلون فى كل أمة ، ولكن حاجتهم إلى الألفاظ والتراكيب للتعبير عن خيالهم الخصب ، وتفكيرهم العميق وأبحاثهم الواسعة الآفاق ، وعلومهم المتعددة الأسماء والأبحاث ، حاجة قوية ، لهذا كانت الفصيحة ، على قلة من يؤثرونها من أبناء اللغة — أوسع ألفاظا وأعمق نظرة ، وأخصب خيالا ، وأدق تعبيراً .

والعامية — كالفصيحة — ليست واحدة بين أهل اللغة الواحدة ، خصوصا إذا هاجرت هذه اللغة من موطن إلى موطن ، وانتشرت بين أجناس متعددة وشاعت فى أقاليم متباعدة ، كالعربية التى نشأت فى الجزيرة . ثم ارتحلت مع مع الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والسودان والمغرب فطغت على غيرها طغيانا يختلف فى قوته ، ولكنه طغيان جرف أمامه ما كان قبلها من لغات . فلم يبق منها إلا آثار قليلة لا قيمة لها . ومع قوة هذه العربية المؤيدة بالدين الإسلامى ، فإنا نجد أثرها فى العامية فى تلك الأصقاع خاضعاً لسلطان البيئة وعوامل الاجتماع ، فهى فى مصر غيرها فى الشام ؛ وفى العراق غيرها فى الجزيرة العربية نفسها . تبعاً لاختلاف من يخالط أهل هذه البلاد . ومايرونه فى بلادهم من حيوان أو نبات . أو تقتضيه مطالب العيش من إقامة أو ارتحال ، وتبعا لاختلاف طبيعة الأقاليم ؛ مما يؤدى إلى الاختلاف فى طريقة النطق وفى كيفية الأداء . وإن اتحدت الألفاظ . ومما يؤدى إلى الاختلاف فى مآخذ التشبيه ومنابع الحكم والأمثال فى عامية هذه الأقاليم .

وليس هذا التباعد ناشئا من تعدد الأقاليم وحده ، ولكنه موجود فى الإقليم الواحد سواء تباعدت أجزاؤه أو تقاربت . فالعامية فى بلادنا مثلا

تختلف من بلد إلى بلد، ومن مديرية إلى مديرية. تختلف فى كيفية الإدام كقول سكان الوجه القبلى « محمّد » وأهل القاهرة « محمّد » ونطق « خزرانة » و« خزانة »، وزغرد، وزغرت، وفى اللفظ المستعمل لمدلول واحد، فبورسعيد تسمى الشيكلة « صولدى » والإسكندرية تسمى التعريفة قرشا، وتسمى الحلابية قفطانا، « والإكحل » فى قنا هو الخبز. والقوطة فى القاهرة هى الطاطم. « والزلمات » فى الشام هم الرجال . . . . . .

وإذا كانت الفتاة الثمينة تشبه « بجدر جميزة » وإذا شبهوا شعرها فى أشعارهم بأنه :

. . . . . يغطى المتن أسود فاحم . أثيث كقنو النخلة المتعثكل

فإن بعض أهل القاهرة وبخاصة الذين من أصل تركى يشبهونه بأسلاك الذهب . وليس ذلك بعجب فالبيئة التى ينتزع منها التشبيه فى أكثر الأحيان مختلفة والحضارة فيها مختلفة كذلك . ومن هنا رأينا الاختلاف فى التشبيه بين جزيرة العرب فى الجاهلية وبين تشبيه المصريين فى القرن العشرين .

- ٣ -

وهجرة اللغات أمر طبيعى، واختلاف اللغات العامية التى من أصل واحد طبيعى كذلك فإذا أمكن أن تتصور لغة ما فى بقاع الأرض لا يزيد أهلها ولا ينقصون فى هذه البقعة، ولا يرون جنسا آخر من الناس استطعنا أن نتصور عاميتهم محدودة، ولغتهم جامدة، كما يقال عن سكان استراليا الأصليين الذين لا تزيد عاميتهم على عشرات الكلمات .

ولكن الحال غير هذا فى معظم اللغات حتى لغة سكان استراليا الأصليين بعد احتلال الانجليز بلادهم فى القرن الثامن عشر . فالناس قد عرفوا الهجرة من أقدم العصور، واللغات قد عرفت الهجرة كذلك فنزحت مع النازحين الذين ضاقت بهم بلادهم فهجروها، أو اضطرتهم طبيعة الأقاليم ومطالب

الحياة إلى الارتحال رغبة فى الغنى ، أو للتجارة ، أو للكشف الجغرافى . .

فإذا استقر هؤلاء النازحون استقرت معهم لغتهم على حال من القوة تعادل حالهم منها ، فإذا كانوا سادة فاتحين كانت لغتهم سيدة مستعملة ، وشاع التكثير منها فى لغة البلاد كما حدث فى الاستعمار الهولندى لأمريكا ، والإنجليزى للهند ولأستراليا ، والفرنسى لكندا وبلاد المغرب . وإذا طغت هذه اللغة على لغة السكان الأصليين فأبادتها كما حدث فى لغة الإنجاز مع سكان استراليا الأصليين ، فإن البيئة الجديدة لاتترك اللغة المهاجرة سليمة من التغيير ، بل تؤثر فيها فتدخل ألفاظ جديدة لمسميات جديدة ، وقد تنشأ عامية فى هذه البلاد للفاتحين تمت إلى أصل إنجليزى ، ولكنها لاتمت إلى إقليم بعينه من أقاليم الجزر البريطانية فى الجملة ، بسبب اختلاف الأقاليم التى تجمع منها هؤلاء النازحون .

وإذا رجعنا إلى عاميتنا فى مصر وبخاصة مايرجع من ألفاظها إلى وهاد الجزيرة العربية ونجادها . وجدناه يرجع إلى أماكن مختلفة فى الجزيرة ، ثم تكونت لنا منه عامية كان يمكن أن تتوحد لولا مايعوق ذلك من بعد المسافة بين أجزاء البلاد . ومايحتاج إليه فى كل جزء ، واختلاف المدلولات نوعا ما يؤدى إلى إختلاف الألفاظ . ومن اختلاف الأجناس التى تتصل بالعامية فى الأجزاء المختلفة من القطر . فالصعيد الأقصى قريب من السودان وشمال الدلتا قريب من الشام والترك مثلا ، وذلك يجعل عامية أهل قنا وأسوان قليلة الألفاظ التركية بعكس عامية القاهرة والإسكندرية .

وقد يكون اختلاف العامية ناشئا من الكسل فى النطق أو كثرة دوران الكلمات أو الرغبة فى الاقتصاد فى الألفاظ ، وما الترخيم إلا نوع من الكسل وما زال ذلك الترخيم فى النداء معروفا عند بعض المصريين فينادون أمين بقولهم « يا أمى » وحسن بقولهم « حسا » وقد يكون فى غير النداء ،

فالسمن ، والسبيط ، والبلاط الأحمر » فى بنى سويف هو « العيش والبيض والبلح الأحمر » فى القاهرة .

وقد يكون الاختلاف فى نطق العامية لا فى ألفاظها ، بل قد يختلف نطق الشخص الواحد لكلمة أو عبارة باختلاف الحالات النفسية التى تسيطر عليه عند النطق فهو فى الحزن ذو لهجة تختلف عنه فى الفرح ، وفى الجدل غير فى الخطابة ، والفصيح مثل العامى فى هذا . فالألفاظ واحدة عندما يقول القائل « ده معقول » ولكن النطق مختلف فى نطقها للاستفهام عنه فى نطقها للأخبار . ويظهر هذا الاختلاف فى الضغط على بعض الحروف ورفع الصوت فى مكان وخفضه فى آخر ، وفى مد حرف وخطف آخر .

والثورات أو النهضات الاجتماعية أو الثقافية تؤثر فى اللغة العامية فتدخل فيها ألفاظا جديدة ، أو تشيع كلمات كانت غير موجودة أو كانت قليلة الاستعمال بأن كانت من لغة الخواص مثلا . وترقى ببعض الألفاظ بعد أن كانت مهينة وهكذا .

وللعادات الاجتماعية أثر فى تخصيص بعض الألفاظ ، فقد نسمع لفظا من رجل فلا نسيغه لأنه من لغة الأطفال أو لأنه جدير بالنساء . ولنضرب لذلك مثلا ألفاظ التحية فى بلادنا . فتحية النساء بينهن وحدهن ، أو بينهن وبين الرجال هى : سعيدة ، أو العوافى ، أو مساء الخير ، أو تصبحوا على خير . وتحية المسلمين بينهم هى السلام وحده أو متبوعا بلفظ مناسبق يلق إلى فرد من الذين يسلم عليهم : السلام عليكم : سعيدة يافلان . وأذكر أن عهداً من العهود كان يجمعنا بكثير من الفتيات ، وكنا جماعة من الرجال تؤثر السلام تحية » حتى إلى النساء . فسرت هذه التحية منا إليهن حتى أصبحن يتبادلنها بينهن قبل تبادل القبلات .

وهناك عامية خاصة بأرباب المهنة الواحدة ، وهى مايسمى « السيم » أو

اللغة الرمزية . كقول عمال القهاوى : ع الريحة أو مظبوط .

— ٣ —

وليست عامية القرى واحدة فى قوتها وشيوعها واحترامها . فعامية المدن أكثر احتراما وشيوعا ، وعامية الريف لاعيب فيها إذا كانت فى دائرة من يتفاهمون بها ، فإذا خرج هؤلاء من بلادهم إلى المدن تضاءلوا وحاولوا أن يكتسبوا مايخالف ألفاظهم هناك كى لايكونوا أقل حضارة أو رقيا . وقد يكون السبب مافى عاميتهم من جفاوة وغلظة وبعد عن مألوف أهل الحضر .

على أن من أهل الصعيد من يرى — وهو فى القاهرة — أن التنكر للهجته كالتنكر لدينه ، فيأبى أن يهجر «الجلم ، والجاموس ، والجلة» القلم والقاموس والقلة .

ويغلب ذلك فى الذين يرحلون إلى الحواضر كبارا ، والذين تقل الصلة بينهم وبين أبناء الحواضر الأصليين ، ولايكون اختلاطهم إلا بأشباههم كطوائف العمال مثلا .

والذى يجعل عامية المدن أشيع هو ما للمدن من احترام فى نفوس الناس ، لما يظنونه بأهلها من رقى ورقة إحساس وسمو أذواق بسبب مجاورتهم للحكام واختلاطهم بأخلاط مختلفة من أهل المملكة أو الممالك الأخرى . ولتوافر العيش الرغيد فى المدن ومايتبع ذلك من حسن فى البناء والأزياء ونظام فى الشوارع والطرقات . ومايسمع فى حديثهم من دلال ونعومة ورقة .

وهناك عامية لاتختص بمكان وهى عامية المتعلمين . فهؤلاء يختارون ألفاظهم وأساليبهم العامية ، إما من الفصيح المحرف قليلا ، أو من عامية الحاضرة . ولذلك نراهم يستطيعون التفاهم فيما بينهم وإن بعدت منابتهم واختلف منشؤهم ، فالموظف من أهل أسوان فى ديوان من دواوين القاهرة يفهم زميله القاهرى والمنياوى ولايقل التفاهم بينهم إلا إذا انتقل الحديث إلى موضوع إقليمى

يجيد ألفاظه ويفهم أساليبه الأسوانى أو المنياوى، وقد لا يفهمه القاهرى.

وإذا كان التعليم قد قرب العامية بين المتعلمين، فالمخترعات الحديثة قد قربت العامية كذلك فى القطر الواحد أو الأقطار التى تتكلم لغة واحدة وأعنى بها تلك المخترعات التى تنقل الحديث من مكان إلى مكان ويقبل الناس على سماعها لشىء آخر وراء ألفاظها كأن تكون مسلية مثل السينما والمذياع والأسطوانات الغنائية ومجلات الفكاهات أو المجلات السياسية والاجتماعية التى تكتب بلغة عامية. والشبان والسيدات أكثر تأثرا بهذا النوع من الشيوخ.

أما تعليم البنت بوجه خاص فله أثر كبير فى التقريب بين العامية فى الجهات المختلفة وفى قربها من الفصيحة، وذلك لأن الأم المتعلمة تؤثر الفصيحة بطبيعتها أو تؤثر عامية الحضر، وهى ذات تأثير كبير فى أولادها يقلدونها فى حديثها وينقلون عنها ألفاظها وطريقة أدائها. وهى كما قدمنا متأثرة بعلمها فتكون لغة أولادها كذلك. والتعليم الإلزامى ذو أثر كبير فى شيوع عامية متقاربة فى البلاد المختلفة من القطر، وفى رقى هذه اللغة كذلك، إذ أن موضوعات هذا التعليم متقاربة وألفاظها موحدة. والأطفال الذين يتلقون هذا النوع من التعليم عن أساتذة من جهات مختلفة يكتسبون ألفاظا وتراكيب عامة لا تقتصر على مدلولات بيئتهم.

— ٤ —

ولا شك أن شيوع عامية واحدة فى القطر الواحد أمر ضرورى. وليس هناك ما يمنع من وجود عامية إقليمية بجانبها. فوجود لغة عامية واحدة يساعد كثيرا على تسهيل عمل المدرسين. فهؤلاء أو أكثرهم يجدون من الصعب استخدام اللغة الفصيحة؛ إما لعجزهم عنها، أو لعجز تلاميذهم عن فهمها. ولا بد فى هذه العامية أن تكون سهلة واضحة الألفاظ رقيقة المخارج غير نابية عن السمع ليكون تأثيرها أقوى. والإفهام بها أتم.

وهناك المصالح المرتبطة بين أهل البلاد على بعد ديارهم خصوصا بعد أن قربت السيارات والقطر والطيارات مسافة البعد . وأصحاب هذه المصالح مضطرون إلى تبادل الحديث أكثر مما كان فى الزمن القديم؛ فلا بد من وجود لغة عامية أشبه بلغة المتعلمين ليستطيع بعضهم أن يفهم وأن يفهم . وإلا كان الاقتصار على العامية الإقليمية مؤديا إلى صعوبة قضاء هذه المصالح. فاذا تقدم تاجر من إسنا أو طهطا مثلا إلى زميل له فى الإسكندرية أو القاهرة وحدثه بلغة إسنا وحدها فقد يصعب التفاهم فلا بد لهذا الإسنوى من إصلاح عاميته وتقريبها من عامية القاهرة كى يستطيع قضاء مأربه . وإذا جاء تاجر زكائب من الريف ليشترى عددا منها من القاهرة وسأل عن المكان الذى يجد هذه « التلاليس — جمع تليسة » فقد يرجع بخفى حنين من القاهرة لا بالزكائب التى جاء من أجلها .

وفى المسرح يحتاج الممثل إلى عامية ممتازة يعترف بها السامعون . ويخضعون لسلطانها ويؤمنون بمعرفتها : اللهم إذا كان دوره فى الرواية محتاجا إلى عامية إقليمية كأن يقوم بدور خادم نوبى أو عامل صعيدى ، وهنا لا حرج عليه أن يمثل بلغة واحد من هذين .

ورجال الوعظ ورجال السياسة محتاجون إلى هذه العامية العالية التى تفهم فى أنحاء البلاد . فلا بد للواعظ بجانب الفصيحة من عامية راقية يستعينون بها على أداء رسالتهم بين المستمعين أينما حلوا وحيثما انتقلوا، ورجال السياسة كذلك محتاجون إليها حينما يبشرون بمبدأ ينتقلون من أجله فى أنحاء البلاد .

— ٥ —

والعامية فى بلادنا ذات أصول متعددة ، وإن كانت أكثر ألفاظها من العربى الفصيح . فعندنا منها القبطى القديم مثل بعبع . ومنها الفارسى كالبالوظه والياسمين ومنها التركى كالبشمك والأودة والبمبة . ومنها الفرنسى كالشيزلونج

والشمزت ومنها الإنجليزى مثل الجريب فروت والكيك . غير أن العامية الشائعة فى القرى وبين الأعراب الضاربين فى الصحراء أكثرها من أصل عربى دخله التحريف فى النطق أو فى قواعد الإعراب

ولهذه العامية الشائعة عندنا بلاغة وفيها حكم وأمثال جديرة بالتخليد . كقولهم : كشكار دايم ولا علامة مقطوعة . وقولهم : القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود . وقولهم : كل طير يلوذ بإلفه .

ولها قواعد منتظمة فالحاء أو الهاء هى حرف الاستقبال مثل « أناح اكتب » أو « هاكتب » وما و « الشين هما حرفا النفى مثل « ما لكش دعوة » « ما عليكش عيب » . وكثيرا ما تخرج ألفاظها عن معناها أو تراكيبها عن الوضع الأصلى لها كالفصيحة فان « اعمل اللى يعجبك » قد يكون معناها التهديد . وكذلك « تقدر تزورنى بكره » قد يكون معناها الالتماس . وأمثال هذا كثير مما لا يخفى على القارئ اللبيب .

وبعد فهذه كلمة مختصرة عن اللغة العامية قد تشترك معها فيها اللغة الفصيحة وقد تنطبق على عاميتنا كما تنطبق على عامية الأمم الأخرى . وأرجو أن تكون على قصرها جامعة ، وأن يغفر لى قارئها ما يرى فيها من نقص أو عيب والله ولى التوفيق ؟

عبد الرازق حميده